عبد المجيد مزيان عبد الله الركيبي عثمان شبوب



التعريب ثورة و ثروة

منشورات الطليعة العربية في تونس
1992

التعريب : ثورة وثروة



التعريب من الوجهتين الاجتماعية والسياسية



عبد المجيد مزيان
كلية الآداب
جامعة الجزائر

« لم يبعث الله نبيـا الا بلغة قومـه »
حديث

١) ملابسات « التحـول الثقافى »

توجد فى كثير من بلاد العالم الثالث اليــوم طوائف من المثقفين لقنت النقد الذاتى من مـرايا مشوهة تعكس لهم وجوههم فى أبشع الصــور وحسب الرسوم التى يرسمها لهم مستعمروهم القدماء ، وينتج عن هذا التشويه أنهم كرهــوا صورتهم اشد الكراهية وارادوا استعارة وجـه جديد.

اعطنى صورتك اتقنع بها ، اعطنى دماغك افكر به ، اعطنى يدك اعمل بها ، اعطنى لسانك اتكلم به » . لو سمعنا انسانا ينطق بهذه العبارات لقلنا انه يهذى ، اننا تعودنا فى لساننا العربى ان نسمى هذيان الطائفة الاجتماعية استلابا واغترابا. ان المجتمع المسلوب الثقافة يشابه الشخص المسلوب العقل ، والاغتراب الاكبر هو ان تغرب عن قومك فيجدونك تتكلم معهم بلسان الآخرين. والافراط فى الجنون والاستلاب هو ان تقول لقومك اغتربوا جميعا حتى تصيروا مثلى لاننى بخير .

لقد أصبح المفكر السياسى الذى يدعو الى تفتيت الوطنيات من اجل عالمية مثالية يشابه الممثل الهزلى ، ما دام الناس يعلمون ان تفتيت وطنية ، ان فرضنا وقوعه ، يؤدى حتما الى الذوبان فى وطنية اخرى اشد قوة .

وهذا شأن دعاة الثقافة العالمية اليوم ، يتصورونها خياليا ولا يلتمسونها واقعيا الا فى الثقافات الوطنية المسيطرة : فى الانجليزية ، وفى الفرنسية مثلا. ان التحول الثقافى بناء على هذا الاعتبار تحول كاذب من الوطنية الى العالمية ، بل هو مجرد تحول من وطنية الى وطنية اشد قوة ، ومثال من يدعو الى هذا التحول مثال الانسان المسلوب العقل الذى يفكر بدماغ الآخرين وينطق بلسان الآخرين. من الملابسة ان يقول المرء ان الانفتاح على العالم والاقلاع عن التخلف يقتضى الاخذ بالعلم والتكنولوجيا بكل اسراع ، وثقافتنا ولغتنا لا تسعان هذا العالم الضخم فلنأخذه من عند ذويه دون تردد. ان الغلط هنا هو ان لا نفرق بين ما هو علم وما ليس بعلم . ليست « العلوم الانسانية » علوما راسخة القواعد حتى الآن. انها مطايا للعقائد ومغارات للنتوحات الثقافية ، والجزء اليسير منها الذى هو علم حقيقى يمكن ان تسعه اى لغة من لغات الدنيا دون كثير عناء .

ومن الملابسة ان نقذف بلغتنا بعيدا عن وجودنا كانها الشىء المنفصل عن كياننا ونصب عليها اللعنات فنسميها لغة القرون الوسطى ، ولغة الشعر والعاطفة، واخيرا لغة الرجعية والرجعيين. ان لغة مجتمع ما تعكس حياة هذا المجتمع بكل اخلاص فاذا قلنا ان لغتنا لغة الشعر والعاطفة فمعنى هذا ان مجتمعنا مجتمع الشعر والعاطفة. واذا قلنا وصح قولنا ، انها لغة القرون الوسطى فمعنى هذا اننا لا زلنا نعيش حياة القرون الوسطى. وبما أن اللغة ليست الا جزءا من انتاج المجتمعات ونشاطاتها فعلينا ان نلوم انفسنا عن كل عجز يلاحظ فى لغتنا ، ولا يمكن ان نتصور عزم أمة متخلفة على الاقلاع عن التخلف دون ان نتصور عزمها على محاربة الامية ودون ان نتصور عزمها على النهوض بلغتها بكل اسراع ، الا ان تكون امة تعيش اشد الاستلابات وطأة وهو الاستلاب الثقافى الذى ينبىء بالانقراض القريب .

وانه لمن الملابسة ان نقول ان التمسك باللغة الوطنية امر عاطفى اكثر مما هو عقلانى ومنهج التغلب على مظاهر التخلف لا يتطلب الا العقل البارد الصرف. واعترف اني لو سئلت لماذا احب لغتى الوطنية لوقع مني التهافت على التماس الادلة العقلية ولكنها ادلة ستغطى الواقع العميق، وهو ان حب الانسان للغته امر شعورى لولاه ولولا شعورات اخرى مثل الاعتزاز بالوطن والتضحية من اجله ، لما كانت هناك اوطان او امم يفاخر بعضها البعض ، ولا يتجاهل هذه الحقيقة

الا المتجاهلون لاحوال المجتمعات· ولو سألنا الانجليزى والفرنسى لماذا تصرف الاموال الضخمة فى مختلف بقاع العالم من أجل التحصيل على اشعاع ثقافى للغة الانجليزية واللغة الفرنسية ، لقيل لنا : « نحن امم تحب لغاتها وتتمنى لها الانتشار فى جميع الانحاء ، ولو تناولنا بالبحث ظاهرة حرص الامم على نشر لغاتها لوجدنا ان الناحية العاطفية لا تقل اهمية فيها عن النواحى المصلحية ·

واذا كانت العاطفة شبه جريمة فى الميدان العلمى الصرف ، لانها مفسدة للبحث النزيه ، فانه من الجريمة فى ميدان التمسك بالوطن واللغة ان لا تكون هناك عاطفة او ان نلابس على انعدامها عند الامم الضعيفة باللجوء الي العقلانيات التى تبرر التحول الثقافى المهيء للذوبان ·

ونقول اخيرا ان الملابسة الكبرى فيما يتعلق بظاهرة التحول الثقافى· هى ان نتناسى تاريخية هذا التحول وارتباطه الوثيق بالاستعمار ، واذا كانت اجيالنا الحالية فى العالم الثالث تتجاهل الحقيقة البديهية التى هى تخطيطات الاستعمار فى الميدان الثقافى ، فما عليها الا ان تجرى فحصا على نفسها لتجد ان تكوينها اللاعلمى من قيم اجتماعية وخلقية ، واذواق ، يرجع معظمه وحتى الآن الى مدارس الاستعمار·

نكاد نتسائل هل نحن اليوم اكثر وعيا ام كان وعينا اقوى منذ عشرين سنة· لقد كان الضغط الاستعمارى يجرى علينا مباشرة اذ ذاك ، وكنا ننتبه بسببه الى مخططات العدو ونحاول احباطها فى انفسنا قبل كل شيء ، وكنا نشاهد التفككات العميقة التى يتعرض لها مجتمعنا وندرك بالبصر واللمس الذى لا يحتاج الى التحليل ، ان امتنا مهددة بالانقراض من كل جانب ـ ركنا نتمسك ببقايا من ثقافتنا كآخر وسيلة للنجاة ، اما الآن وقد زال الخطر المباشر فيظهر ان انتباه الكثير منا قد عرف بعض الفتور· لقد اصبحنا نتكلم عن ثنائية الاصالة والتفتح كشعار يفهمه كل منا حسب تكوينه الحالى ، مع جهد قليل فيما يخص التأصل· ولا غرابة أننا نجد بعض المثقفين يضيقون مفهوم الاصالة لحصره فى حدود الثقافات الشعبية او لحصره فى شبه تقليد لاسلافنا مع التكاسل عن الاصالة الحقيقية التى هى الخلق والابداع الذى تتطلبه النهضة الواجبة على اجيالنا الحاضرة ·

٢) للثقافة بنياتها :

يمكننا ان نقول ان للثقافة بنياتها كما ان للمجتمع بنيات· غير ان البنيات فى الثقافة مربوطة بمعيارية لا مناص منها اذ ان هناك فروقا عظيمة بين المستويات· من اجل هذا ، لا يمكننا ان نضع كلا من الفلكلور والتكنولوجيا فى نفس المستوى ·

وان الانتباه الى تاريخية الوضع الثقافى منذ اتصالنا بالاستعمار يجعلنا نشاهد ان معظم مجتمعاتنا فى العالم الثالث قد توضحت فيها الفوارق بين البنيات الثقافية ، فثقافة المستعمر تعتبر البنية العليا او تاج الثقافة عند الاجيال الحاضرة ، وانعكاس هذه الوضعية على الحياة المجتمعية يجعل بطبيعة الحال ، هذه الثقافة فى قمة الهرم المجتمعى ، ولا عجب ان تكون بيرقراطياتنا وتقنوقراطياتنا ذات جذور استعمارية فى غالب الاحيان اما الثقافة الوطنية فانها بمثابة البنية الوسطى ، وهى قبل كل شيء ثقافة التراث يعتنى بها قدر الحاجة الى بناء التاريخ القديم ، واحياء المعارف الاسلامية ويعتنى بها احيانا فى

حملات التأصل. وقوة هذه الثقافة راجعة فى اغلبها الى اللغة الوطنية ، غير ان هذه اللغة تعامل معياريا ، كلغة ثانوية لانها ليست لغة العلوم ، فيما يزعمون .

اما اسفل البنيات فانها بنية الثقافات الشعبية ويمكن ان نجد فيها هى الاخرى مختلف المستويات : من الفلكلور السخيف الى مستوى الشعر الراقى. وحيوية هذه الثقافات ترجع الى حيوية اللهجات المحلية وقدرتها على تصوير الواقع الاجتماعى بوسائل فنية خاصة بها .

واذا اردنا حسب المفهوم العادى ان نلمس الاصالة فى هذه المستويات فسنجدها مربوطة بالبنيتين السفلى والمتوسطة.

اما التفتح او جسر العالمية فكله مربوط بالبنية الثقافية العليا ، ومعنى هذا ان التفتح حسب المفهوم الجارى عندنا ، يعنى فى غالب الاحيان اكتساب الثقافة الاجنبية ، تارة للفعالية العلمية والتقنية ، واحيانا أخرى للتحصيل على مستوى التمدن الذى توحيه الثقافة العالمية المزعومة ، الا وهى ثقافة المستعمر القديم ، فى ميادين غير علمية مثل الآداب ، والاذواق ، والقوانين. نقول ان هذا التحليل المتعلق بالبنيات الثقافية قد يكون مبسطا للغاية. واذا اردنا ان نذهب الى اعماق الواقع ، فاننا سنتعرض لمشكلتين. اولهما مشكلة ربط المستويات بالواقع الاجتماعى الاقتصادى الذى يتجلى فى تباين الطبقات ، والمشكل الثانى هو مشكل اللغة الوطنية ومكانتها بالنسبة لمختلف الطبقات. ومن هذه المعرفة للواقع يمكننا ان نتصور المشاكل التى تعترض سبيلنا فى تطبيق سياسة التعريب ، سنكون من المشوهين للواقع اذا ادعينا ان كل المتمسكين بالثقافة الاجنبية ينتسبون الى طبقة اجتماعية موحدة للعنصرين البورجوازى والبيروقراطى ، ذلك لان كثيرا من حملة الثقافة الاجنبية ، بفرض تخصصهم التقنى او المهنى ، يجهلون ثقافتهم الوطنية ولكنهم لا يضمرون لها الاحتقار والعداء ، ويودون ان لو مكنتهم الظروف من معرفة هذه الثقافة ، وهم مربوطون ذهنيا وسلوكيا وعضويا بالطبقات الشعبية. كما ان هناك حملة للثقافة الوطنية مربوطين ذهنيا وسلوكيا وعضويا بالعنصرين البورجوازى ـ البيروقراطى .

ولو طبقنا مثل هذا التصنيف المبسط على مشكلة اللغة ، لوجدنا ان هناك مستويات تكاد تكون طبقية. فالجارى عندنا مثلا ان اللغة الفرنسية او الانجليزية تعد بمثابة البنية الفوقية ، واللغة الوطنية تقوم مقام المستوى الاوسط بينما اللهجات المحلية تكون المستوى الاسفل .

قد يقال ان هذا الوضع طبيعى ما دامت اللغة الوطنية دون مستوى اللغات العلمية غير ان عرض القضية بهذا الاختصار مع معاملة اللغة الوطنية كعبء موروث محدود فى مستوى معين ، انما هو تعبير عما يجرى فى خلد طبقة معينة ، تريد بسبب تكاسلها وبسبب ارتباطاتها ان تستمر فى تقليد مستعمريها الى اجل غير محدود ، والتعبير الوطنى السليم يفرض هنا ان نقول : « يجب ترقية اللغة الوطنية الى مستوى العالمية ومستوى التبليغ العلمى مهما كلفنا ذلك من جهود ».

وبفضل هذه الجهود يمكن التخفيف من حدة الفوارق فى المستويات ، ويمكن وضع اللغة الوطنية فى القمة ، ووضع اللغة الاجنبية فى مكانتها الطبيعية كلغة اضافية للتبادل العالمى. وبهذا المفهوم يمكننا ان نتكلم عن الاصالة والتفتح

بدقة اكثر فتكون الاصالة ابداعا وخلقا فى مستوى العالمية وبواسطة لغة وطنية راقية ، ويصبح التفتح تبادلا بين الاكفاء ، وتزول الالتباسات والاستلابات المتعلقة بالتحول الثقافى والعالمية الثقافية المزعومة ٠

واذا أردنا ان نبسط مشكلة التعريب من حيث الغاية التى يجب رسمها من الآن ، فلا يمكن ان نتناسى قضية المستويات الموجودة حاليا ولا نتناسى ان اللغة الوطنية اذا بقيت بمعزل عن التعبير العلمى والتقنى ، عدت باستمرار لغة البنية الوسطى ، اى لغة ثانوية ، بمعيار الثقافة الحالية ، حتى ولو كانت لغة الادارة ، ولغة المدارس الابتدائية والثانوية ولغة التخاطب اليومى ان فرضنا نجاحنا فى محاربة الامية٠ هذه بعض منطلقات لسياسة التعريب ، اذا اخذت بكيفية اجمالية ، اما الجوانب العملية والجزئية من هذه السياسة فانها اشد تعقيدا مما يظن لاول وهلة ، اذ انها تثير مشاكل نوعية بالنسبة للمراحل ومختلف الاجيال وبالنسبة للطبقات ، والفئات والاشخاص الذين تسند اليهم المسؤوليات فى الادارة والتعليم ٠

التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية

تعودنا ان نطرح فى هذه السنين قضية التعريب من الوجهة السياسية كهدف وطنى ، نسترجع به شخصيتنا الثقافية التى فككها الاستعمار ، وانه لموقف سليم ان ننظر الى هذه القضية فى اطار التخطيط الوطنى٠ واذا كان التعريب يعد عند بعضنا من المتطلبات البديهية ، بحكم واقع الامة وبحكم تاريخها وضمان كيانها فى المستقبل ، فان هناك طوائف لا تحس بهذه البداهة ، ولعلها ترى البداهة فى ابقاء الحال على ما كان من سيطرة الثقافة الفرنسية ، واتمام مخطط التحول الثقافى الذى شرع الاستعمار فى تنفيذه منذ بداية هذا القرن ٠

يمكن ان يقال لهذه الطوائف المحافظة التى تمشى على تخطيطات ما قبل الاستقلال ان التعريب ليس اختيارا سياسيا من بين اختيارات متعددة ، ولكنه فرض طبيعى فرضه واقعنا الاجتماعى ، ولا يمكن التخلى عنه دون معاكسة هذه الطبيعة التى تأكدت طوال عشرة قرون ٠

اننا لا ندعى ان التعريب فى اقطار الغرب الاسلامى وقع دون مجهود او تخطيط من رجال الثقافة عبر الاجيال ، ولا ندعى انه كان امرا تلقائيا لم يحتج الى اى تدعيم من طرف قادة البلاد ، الواعين لاهمية الثقافة فى البناء الحضارى٠ بل كان التعريب لمدة مئات من السنين ثمرة مجهودات جبارة من طرف المثقفين وبعض رجال الدولة ، غير ان الامة جمعاء كانت تحتضن هذه المجهودات كتشخيص لرغبتها العميقة فى اكتساب الثقافة العربية وكوسيلة ضرورية لفهم العقيدة الاسلامية الراسخة فى النفوس ، ويمكننا ان نعد هذه الرغبة الجماعية ابرز مظهر يجعل من التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية ، لانها مقرونة بحضارة الامة وكيانها ٠

كل انواع التعريب كانت مربوطة بالثقافة الاسلامية

لقد تعود المؤرخون ان يصنفوا لانواع التعريب ويرون ان هناك نوعين : نوعا حضاريا ينطلق من المدن ، ونوعا لغويا محضا ياتى عن طريق التعايش بين القبائل ذات اللسان العربى وغيرها٠ وليس احسن من المشاهدة فى نظرهم لاثبات هذه الظاهرة اذ ان لهجاتنا العامية تنقسم اجمالا الى لهجات حضرية ولهجات بدوية وقد تفنن المستشرقون فى

الوقوف على الفوارق العديدة بين اللهجات ، مقررين فى سرعة استنتاجاتهم ان كل لهجة لها شبه كيان مستقل وتطور خاص ، رغم تفرع جميع اللهجات عن الجذر المفقود او اللغة « الميتة » التى هى اللغة العربية ·

ولقد ادت بهم نظرتهم التجزيئية الى عدم تصور الواقع على حقيقته ويتلخص هذا الواقع فى هيمنة التعريب الثقافى على كل انواع التعريب ، وفى توحيد حركات التعريب ضمن المعطيات الثقافية ، وتظهر هذه الحقيقة عمليا ، فى المجهود المستمر الذى كانت تبذله كل جماعة فى الحصول على قدر ادنى من الثقافة العربية الاسلامية لتنتسب للامة· كما انها تظهر فى سهولة ترك الكثير من القبائل لهجاتها الاصلية للاخذ باللسان العربى العامى كخطوة اولى للوصول الى لسان الثقافة الاسلامية الذى هو اللسان العربى الفصيح ولم يتيسر لاغلبية المستشرقين ان يدركوا ان التقييمات السياسية الاساسية للشعوب الاسلامية كانت فى الغالب تلك التى تجعل وحدة الامة اساس شعورها ونشاطها· ولم تكن الا قليميات والوطنيات الا مجرد تفرعات سياسية تعتبرها الشعوب عوارض عائقة فى طريق الوحدة ، او مراحل فى سبيل تحقيقها · ولا تتنافى هذه الحقيقة مع تمسك كثير من الجماعات بلغاتها المحلية غير ان اللغات المحلية لم تزاحم فى يوم من الايام لغة الامة ولغة الثقافة الاسلامية التى كانت تحل محل البنية العليا منذ ظهور الاسلام بهذه البلاد ، وسواء تعرب الناس عن طريق المدن ، او عن طريق البوادى ، سواء تركوا لهجاتهم الاصلية نهائيا او حافظوا عليها مع اكتساب العربية كلغة للامة الاسلامية التى ينتسبون اليها من اعماق شعورهم فان انواع التعريب كلها راجعة الى الثقافة الاسلامية·

هذا هو المتجه التاريخى الاجتماعى العام الذى يجب الوقوف عليه للاقتناع بان التعريب كان امرا طبيعيا بالنسبة لجميع سكان الغرب الاسلامى ، وهناك حقائق جزئية لا بد من الاطلاع عليها لدراسة كيفيات التعريب وتطور نماذجه عبر الاجيال·

الاشعاع الثقافى للمدن الاسلامية :

يفترض بعض المؤرخين ان التعريب فى الغرب الاسلامى ، كان من الممكن ان ينحصر فى كبريات المدن ، لولا توالى هجرات السكان الناطقين باللسان العربى ويبدو لنا ان مثل هذا الافتراض لا اساس له من الصحة ، لان رغبة الجماعات المحلية فى التعريب كان مقرونا بالتطلع الى الحضارة واكتساب الثقافة الاسلامية· ومهما كانت اهمية الدور الاقتصادى والسياسى الذى كانت تلعبه الحواضر الاسلامية الكبرى ، فان اشعاعها الثقافى كان يعتبر اهم شىء فى نظر الامة ، وانه لمن السخافة ان نربط ظاهرة التعريب بالعرق العربى ، كما كان يفعله المستعمرون بالامس واتباعهم من ابناء امتنا اليوم· ذلك ان حملة الثقافة الاسلامية كانوا من مختلف الاعراق ولا يهمهم البحث عن اجناس البشر بقدر ما يهمهم الانتساب الى الامة ، وليس من العجب ان تجد فى مجتمعاتنا الحضرية جل المعربين من السكان الاصليين · واننا اذ نتكلم عن الاشعاع الثقافى للحواضر الاسلامية انما نعنى بذلك ان العلوم العربية والاسلامية لم تكن منحصرة وراء اسوار المدينة ، بل كان الطلبة المتخرجون من حلقات العلم بكبريات المدن ، يذهبون الى قراهم ويقومون بنفس الدور الذى قام به شيوخهم ، وسرعان ما تصبح

القرية عبارة عن مدينة مصغرة لها رسالتها فى نشر العقيدة والشريعة واللغة العربية·

واذا كانت هناك مدن « قطبيــة » تدور حولها حركات ضخمة من الانشطة الحضارية والثقافية مثل القيروان وقرطبة وفاس ، فان هناك عواصـم جهوية لا يمكن تناسى ادوارها فى نشر العلـوم الاسلامية وربما كان لها القسط الاوفر فى حمل الثقافة العربية الاسلامية الى أبعد الآفاق · وان بجايــة وتلمسان وتمنطيط ، لتعد نمــاذج لهذه العواصم الجهوية التى كانت تسهر على تعريب السكان بتعدد الاتصالات وارســـال الطلبة الى مختلف النواحى ، وليست قضية الاشعاع الثقافى مــربوطة حتميــا بكبر المديـــنة او صغرها ، ولا باستقرارها او عدم استقرارها السياسى ، ذلـك لان المثقفين المنبثقين من الجماعات الشعبية كانوا يلقون فى بعض الاحيان مساندات من السلطان ، كما كانوا يلاقــــون احيانا اخــرى معاكسات ، ورسالتهم الثقافية هى هى لا تعرف اى فتور · وقد تجد النشاط العلمى زاخرا فى المدينة الصغيرة ، بينما تجده محدودا فى المدينة الكبيرة ، غير أن الظاهرة العامة بالنسبة للاشعاع الثقافى فى المدن كانت تتلخص فى شعور مثقفيها بضرب حصــار منظم على الجهل اينما وجد ، وكانوا يستغلون كل اتصال لبث معارفهم العربية الاسلامية· ومــن العجب انهم كانوا لا يفرقون بين السكان الناطقين باللسان العربي وغيرهم من السكان فى القيــام برسالتهم الثقافية ، ولا فرق عندهم بين هــؤلاء وهؤلاء اذ يعتبرونهم سواء فى الجهـل بالشريعة وبلغة القرآن ، فالتعريب الحقيقى الذى هو تعريب ثقــافى كان يحتاج الى مؤسسات علمية ثابتــة مستقرة ، ولم تكن تتوفر شروط الاستقرار الضامن للاشعاع الا فى المدن التى تحتضن فيها الجماعات المحلية هذه المؤسسات ، فليست قضية التعـريب اذن قضية سكان ناطقين او غير ناطقين باللهجات العربية ، وليست قضية تشجيع او عدم تشجيع من طرف السلطان ، وليست قضية مدن كبيرة او مدن صغيرة ، ولكنها قضية شعور شعبى وجماعة واعية ومنظمة تعمل على تحقيق هذا الشعور·

الصفة الشعبية ـ الجماعية للتعريب :

كثيرا ما يظن الدارسون لحركة التعريب عبر التاريخ ان السياسة لعبت الدور الاهم فى تثبيت هذه الظاهرة ، وان الدول كانت تصاحب حركاتها العسكرية بحــركة ثقافية وحضارية مــوازية ، ولا زلنا نسمع حتى اليوم مــن المتمسكين ببقايا الدعاية الاستعمارية ، ان تطور الاحداث الثقافية فى القرون الوسطى شبيه اشد الشبه بالتطور الثقافى فى عصر الاحتلال الفرنسى ، وان شعب الغــرب الاسلامى قد حول عن ثقافاته القديمة بالضغوط والتخطيطات السياسية من لدن الفاتحين الاولين ، ثم من لدن الاقليات الحاكمة من بعدهم· وليست تعنى مثل هذه الدعــاية سوى التوصــل الى استنتاجات سياسية تجعل المغترين بها يعتقدون ان التحــول الثقافى الذى فرضــه الاستعمار الفرنسى يشبــه التحول الثقافى الذى فرضــه المحتلون المسلمــون واصبح الكثير من هــؤلاء المغالطين بدعايات الاستعمار يوهمون الناس ان الاقليات التى لا تتكلم العربية ، تكون النـــواة الثقافية ، فى نظرهم ، للرجوع الى ما قبل الثقافة العربية الاســلامية ، وكلنا يعـلم ان مــثل هذه الدعايات لا يعرف عنها الشعب ادنى شىء ، ولكن حملتها مــن المثقفين المتعشقين للقيم الفرنسية ، تغذيهم العــرقية الفرنسية بكل ما اوتيت مـــن

تمويهات لا حباط سياسة التعريب والمحافظة على هيمنة الثقافة الفرنسية فى بـــلادنا. ولسنا فى حاجة الى عرض كل الحجج التى ياتى بها انصار هذه الدعاية ، وسواء كانوا صادقين او كاذبين فى تبنيهم لها ، فانـــه يكفى ان نقوم بعـــرض موضوعى للواقع التاريخى ، الاجتماعى لتتبين لنا مغالطات المؤرخين الاستعماريين واتباعهم فـــى هذا الميدان .

نقول ان التحول الثقافى الذى احدثه الاستعمار الفرنسى قد صدر بقوة الســـلاح وبعد التقتيل والتشريد الذى عرفه جميع السكان ، وبـعد ان استئصلت المؤسسات الثقافية الشعبية من اعماقها بينما كان التحول الثقافى الذى احدثه الاســلام تحولا برغبة الشعوب ، ولم تكن الدول الا منفذة لرغبة الشعوب فى هذا الموضوع ، وربما لم تكن منفذة لرغبة الشعوب الا فى هذا الميدان.

اننا نعلم حق العلم ان جل المؤسسات الدينية والثقافية كانت من منجـــزات الشعـــب تســـهر الجماعات المحلية على بنائها وتمويلها ، وتسهر على توظيف اطاراتها ، وتحبس الاملاك للقيـــام بمختلف شؤونها. وتتجلى صفتها الجماعية ايضا فى كيفية تسييرها والانتفاع بها ، فلم يكن المسجد ولا المدرسة وقفا على طبقة او فئة بل كان من حق جميع السكان أن يستفيدوا منهما دون قيود ولا شروط . ولو فرضنا ان السياسة كانت تلعـب الدور الاهم فى التعريب ، لا قتصرت هذه الحركة على المدن الكبرى التى توجد فيها السلطة الحاكمة بكل قواها. ولدينا مئات الامثلة التاريخية تثبت ان الثقافة كانت من نشاط الجماعات المحلية حتى فى كبريات المدن التى هى « كراسى للملك » كما كان يسميها الاقدمون. ولدينا اكثر من مثال على استقلال الجامع ، او الرباط ، او المدرسة عـــن رجال « المشور » . وكثيرا ما كانت تقع الصراعات بين فقهاء الشعب وفقهاء « المشور » ، وتناصر الجماعة المحلية مثقفيها حتى لا ينتصـــر عليهم اعداؤهم ، ولدينا اكثر من مثال على قياس النزاهة العلمية عند الاقدمين بتحملهم الفقر فى ظل الحياة الجماعية وتفضيلهم هذه الحياة على الجـــاه والترف المعروض عليهم من طرف الامراء.

ولو فرضنا من جهة أخرى ان السلطة الاقطاعية كانت تلعب الدور الاهم فى التعريب ، فكيف يمكن ان نجد النواحى النائية التى لا علاقة لها بالسلطة الا علاقة الانتساب الى الامة ، ولا تعانى اى ضغط عسكرى او ادارى ، تتحمس لانشاء المؤسسات الثقافية وتمويلها ، وتتحمس شديد التحمس الى الثقافة الاسلامية والتعريب ؟ لو وقفنا مثلا على تاريخ قرية نائية مثل قرية تمنطيط الموجودة فى اقصى صحرائنا الغربية ورأينا كيف عربت نفسها بنفسها ، وكيف بعثت البعوث الثقافية الى اقاص افريقيا السوداء ، لعلمنا ان التعريب كان منبثقا من صميم الرغبات الشعبية وان الجماعات المحلية هى التى لعبت فيه اهم الادوار.

ولنا فى التاريخ البعيد والقريب امثلة متعددة عن التعريب الذاتى ، وتوقان الشعوب الى الثقافة الاســلامية وربما كانت هذه الحركات الشعبية قوية النشاط فى عصور انهيار السلطات المركزية على الخصوص. ولا يمكننا ان نفسر هذه الظاهرة الا بحيوية الروح الجماعية فى بـــلادنا ، وأن نلاحظ ان الجماعات المحلية كانت السبب الاهـم فى نشر الثقافة الاسلامية واللغة العـــربية فى الغرب الاسلامى وفى افريقيا منذ عشر قرون.

هذه بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية عن ظاهرة التعريب فى بلادنا ، واننا اذ نتطرق اليها اليوم ، من خلال التاريخ فلا يعنى ذلك ان الظروف القديمة لا زالت ممتدة الآثار ، وبنفس الكيفية ، حتى فى عصرنا الحاضر· ان الجماعات المحلية قد فقدت من حيويتها ، وان العقيدة الاسلامية الحاملة للتعريب قد فترت ايما فتور ، غير اننا قد حصلنا على مكتسبات اجتماعية وسياسية جديدة لم تكن متوفرة عند اسلافنا ·

لقد اكتسبنا عوضا عن الجماعة المحلية والامة الواسعة ، امة محددة واضحة التوقان والنشاط ، واكتسبنا عوضا عن السلطان الاقطاعى دولة عصرية شديدة الرغبة فى التوحيد الثقافى بين مختلف الجهات والطبقات ، واكتسبنا اخيرا امكانيات علمية وتقنية للاسراع بتنفيذ رغبات الشعوب·

ونعتقد ان رغبة شعبنا فى اعطاء ثقافته الوطنية مكانتها التى هى مكانة الاولوية ، لا زالت كما كانت فى القديم رغبة اكيدة لا يجوز معاكستها او التحيل على تأجيل تطبيقها الى ابعد الآجال·

الجزائر 1973



تعريب التفكير أولاً

د. عبدالله ركيبي
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

لا أشك مطلقا فى أن ما أسوقه فى هذا الحديث من آراء وأفكار ، وما أعرض فيه لقضية خطيرة ناقشها الكتاب وأخذت من الاهتمام ما لا يدانيه سوى الحديث عن حرية الشعب واستقلاله ، قلت لا أشك فى أن ما أقوله عن التعريب سيثير سخط أناس ان لم أقل غضبهم وثورتهم ، لانهم تعودوا على المألوف من القول والعادى من الامور ، بل ألفوا الرتابة فى حياتنا الثقافية وألفوا أن يؤمن على كل ما يفعلون ويمدحون على الصواب والخطأ حتى فى القضايا المصيرية التى تمس واقع الشعب ومصيره على السواء .

وحين يسعى بعضنا لتنبيه بعض العقول التى ألفت الخمول والركود ، يسارع أصحابها الى رمى الحجارة فى وجوه الذين يسعون جادين مخلصين الى اثارة القضايا ومناقشتها بموضوعية ونزاهة . وهذا التفكير المتحجر الجامد هو سبب المأساة التى نحسها فى حياتنا الثقافية والادبية.

ورغم ما الفناه من رد فعل هذه الفئة ومن عقليتها ومن تصرفاتها التى عانينا منها وما زلنا ، رغم ذلك ، فاننا لن نبحث عن رضائها ولا عن سخطها او اثارتها ، فنحن لا نصدر فيما نكتب او نقول سوى عن مسؤولية وعن صدق فيما نعتقد وايمان بما نقول دون هدف آخر ·

والواقع ان التعريب تعرض لضغوط كما تعرض لاستغلال عجيب· فهناك من رفعه شعارا لتحقيق مآرب خاصة ومصالح آنية ثم لاذ بالصمت ، وهناك من لا يزال يرفع شعاره طمعا فى أمور يرجو تحقيقها فى المستقبل ، ولكن هناك من دافع عنه **كقضية قومية مثل القضايا الوطنية لا لمرحلة من المراحل ·**

ويمكن ان نلمس هذه المواقف المختلفة فى كثير من القضايا مثل الاشتراكية ، فالبعض نادى بها بوصفها حل لمشاكل الشعب وتحقيقا للعدالة وحين تحقق له المسكن المريح سكت ، ولكن الاشتراكى الحقيقى ما فتىء يطالب بها وينادى بشمولها سواء عن طريق الثورة الزراعية أو عن غيرها· ويمكن أن نسوق امثلة من قضايا كثيرة ومن مواقف متخلفة لو ان المجال يسمح لذلك ·

على انه فيما يتعلق بالتعريب فان المرء مطالب بان يعرض لتطوره لا من حيث الاحصائيات أو من حيث تقديم الحلول ، فقد سبق لى فى مكان آخر ان بينت رأيى بوضوح فى هذا الامر ، ولكننى هنا فقط أود أن أقدم بعض الملاحظات بعد سنوات مرت على الاستقلال وعلى الثورة ثم مرت على البداية فى تحقيق التعريب ·

والظاهرة التى تلفت النظر فى وضعية التعريب فى بلادنا ، هى أن التعريب مر بمرحلتين واضحتين منذ الاستقلال حتى الآن ، مرحلة الستينات ومرحلة السبعينات ، فالاولى كانت دفاعا عن التعريب وعن اللغة العربية بوصفها احدى الاختيارات الوطنية ، التى لا رجوع فيها وأن التعريب من المقومات الاساسية للشخصية القومية ·

ومن هنا نشأ ذلك الصراع الطويل بين من يؤمنون بالتعريب وبين من يقفون ضده ، وكان صراعا سافرا بارزا للعيان· فقد كان خصوم التعريب يحاربونه فى وضح النهار ، ويقفون ضده بالقول والفعل معا ، ويبذلون جهدهم لعرقلته فى شتى المجالات وبشتى الوسائل· كما تعرض أنصاره الى حرب نفسية قاسية والى ضغط شديد وصل الى القدح فى ثقافتهم وكفاءتهم فوق الدعاية المغرضة التى تتهم الثقافه العربية بالخمود والتأخر ، فكانت المقارنة باستمرار بين اللغة العربية وبين اللغات الاجنبية ، والهدف هو الوصول الى نتيجة معينة وهى ان اللغة العربية قاصرة عن أن تستوعب ما تنتجه الحضارة الحديثة وبالتالى فهى لغة لا تصلح للعصر ، واذا فلا بد من بقاء اللغة الاجنبية واستمرارها· بل وصل الامر الى الارهاب الفكرى ايضا دفاعا عن اللغة الاجنبية واضطهادا لمن يدافع عن اللغة القومية من بعض العناصر المتعصبة للغة الاجنبية·

هذا مجمل ما كان يجرى فى المرحلة السابقة· اما المرحلة الجديدة بالنسبة للتعريب ، فانها تختلف عن الاولى فى الملامح والسمات والمظاهر ، ولكنها تتفق معها فى النتيجة ، **ذلك ان التعريب فى السبعينات أصبح مقننا فقد سنت من أجله القوانين وصدرت فى حقه القرارات الحكومية ، وأصبح بحكم التشريع وبحكم القانون أمرا مقررا لاخلاف حوله· فماذا كان رد فعل خصومه ؟**

لقد لجأوا الى طـــرق جديدة ، **طرق ملتوية يفسرون بها النصوص القانونية حسب أهوائهم ، ودخل التعريب فى مـرحلة المناورة بدل المبادرة وتنفيذ القانون**· فمـــا دام القانون يسنده فان الوقوف فى وجهه جهارا نهارا ، قد يعرض مـن يفعل ذلك الى المتابعة القانونية والشعبية ، فتغيير التكتيك ، وتغيير الاسلوب ، وأصبح الشعار فى الظاهر هو : « كلنا مع التعريب وكلنا مع اللغـة القومية » ولكن الحقيقة أن مقاومـــة التعـريب استمرت كما كانت فى السابق تحت صور متعددة ، تغيرت الاصباغ ولكن الجوهر لم يتغير ، فما زالت النظرة كما هى بل أشد مما كانت عليه فى السابق·

فالعراقيل التى توضع أمام التعريب اليوم أشد عليه من الفترة الماضية ، فهى عراقيل مدروسـة بعناية كبيرة من بعض خصومه· فـــقد افرغوا القانون من محتواه ، اشترطوا للوظيف مستوى للترسيم والتثبيت ولكن حين جاء التطبيق تدخلت الاعتبارات الخاصة والنوايا المبيتة والافكـــار المسبقة ، فوجدنا ممن لا يستطيع كتابة جملـــة بالعربية مرسما فى وظيفة· وبذلك استغلوا القانون كما استغلوا الفراغ الذى سببه عـدم المراقبـة الصارمة على تنفيذ النصوص ، وظن أصحـاب النية الطيبة أن القانون وحده يكفى لردع المغرضين واذا بالتعريب يتعثر بحيث لم يدخل قطاعات كثيرة كان المفروض أن يدخلها ، لم يدخل حتى المجالات البسيطة التى تعبر عنها العامية فضلا عن العربية الفصيحة المعربة ، والا فكيف نفسر عدم تعريب أمور لا تتطلب ثقافة أو تعمقا فى اللغة فى مستويات كثيرة ابتداء من البلديات مـرورا بالحزب حتى المؤسسات الاخرى حسب السلم الادارى·

وما قيمة الامتحانات التى عقدت للعربية وما أثرها فى التعريب لقد اتهم أنصار التعريب دائما بالحماس وعدم الواقعية فى نظرتهم لهذا الموضوع وسكت المعربون الا القليل ، واعتبروا أن القانون سيضع حدا للمناورات ضد التعريب ولكن الواقع يؤكد أن أعداء التعريب يتظاهرون بالعمل لـــــه بينماهم فى واقع الامر يحاربونه بشدة ، وبذلك سدوا الطريق أمام أنصار التعريب ، بل وسبقوهم الى الدفاع عنه فى المناسبات ، وهذا الاسلوب الذكى يدل على أن الافكار قد تلبس قفازا ناعمـا ولكنها تبقى كامنة حتى تأتى الفـرصة الملائمة للظهور ، وهذا ما يسمى بالاحتراف· والحقيقة التى لا بد أن نسجلها أن خصوم التعريب ليســوا فى درجة واحدة من رفضه ومقاومته· فهناك مـن يقف ضده بحسن نية او بسذاجة وعدم فهم ، بل وبايمان بأن التعريب قد يـــؤخر البلاد· وهذا الصنف من خصوم التعريب من الممكن اقناعـــه بالحجة وبالتجربة والواقع· بل من واجب المؤمنين بالتعريب أن يفتحوا نقاشا هادئا متزنا مع الذين لا تحركهم عقد أو مركبات خاصة تجاه التعريب ، وانما ينقصهم فقط الفهم وادراك الحقيقة·

ولكن الصعوبة التى تواجه التعريب **فعلا من** تلك العقلية التى رسخت **فى أذهان الصنف الآخر** الذى يقف ضد التعريب ويرفضه رفضا باتا بدافع العداوة المبنية على سوء النية وعلى الفكرة المسبقة التى أشرت اليها فى بداية هذا الحديث· وهؤلاء لا بد أن يتجردوا من أنيابهم التى يمزقون بهـــا الشخصية الوطنية· ان اسـناد الوظائف لـــهم واعطائهم الحرية المطلقة فى أن يتصرفوا كمـــا يشاؤون فى قضايا تمس مستقبل الوطن ومستقبل الاجيال ، ان هذا سيكلفنا الشىء الكثير ، قـــد لا ندركه اليوم ، لاننا نعيش الاحداث اليومية بحكم

العادة وعدم التنبه للتاريخ ، ولكن سياتى اليوم الذى يحكم فيه غيرنا علينا وعندئذ ستظهر الحقيقة المــــرة ·

هذا الحكم ليس من وحي النظرة التشاؤمية او الحساسية المفرطة تجاه قضية مبدئية مصيرية· ولكنه حكم مبنى على الملاحظة والتجربة المعاشة· ولكن بعضنا يلاحظ ويسكت وبعضنا يفضل قول الحقيقة ولو كان مرا ·

وهنا يمكن أن نتساءل : لماذا يسير التعــريب ببطء ويتعــثر باستمرار ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يحمله عنوان المقال· فالمشكلة فى تصورى **هى اننا نظرنا الى التعريب نظرة لغوية بحتة ، ونسينا الجوهر الاساسى فى الموضوع ، فالتعريب اللغوى لا يكفى ، لان من يقرا بالعربية او يكتب بها قد يلتقى مع اى اجنبى يحسن العربية ، يلتقى مع المستشرق الذى يتقن العربية مثل اهلها وربما اكثر منهم· ويلتقى مع من يتعلم لغة أجنبية بغض التعامل مع اصحابها· فى حين أن التفكير هــو المهم فى الموضوع· فربما وجدنا مواطنا لا يحسن العربية ومع هذا يدافع عن العربية والعروبــة اكثر من بعض الذين يتقنون العربية·**

ولو كان خصوم التعريب يحملون ولاء للتفكير العربى لما وقفوا ضده ، فمثلا نجد الشاعر مالك حداد لا يعرف العربية بتاتا ومع هذا فهو يــؤمن باللغة القومية وله ولاء كامل للامــة العـــربية ولمصيرها الواحــد·

فالذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية ، يجردونه من مضمونه ، من حقيقته ، ويسعون فى الوقت نفسه الى تكريس الاقليمية ، ويعملون لاستمــرار التجزئة والتشتت وابقاء الامة العربية جســدا بلا روح· فالوحدة لا تتم مــــع الاقليمية ولا مــع التعريب اللغوى ، وانما تتم مع التجانس الفكرى ، مع التوافق ، مع تعريب التفكير·

واظن أن تقســـيم المثقفـــين الجزائريين الى « معربين ومفرنسين » ، انطلق من مفهوم لغوى ومن نظرة سطحية أو مقصودة مغرضة· فالتسمية علميا ووطنيا وقوميا غير مفهومة وغير دقيقــة وغير سليمة ، بل وغير مقبولة ، أو مبررة·

فمن غير المقبول اطلاقا أن نستخدم مصطلحات ـ مــثل هذين المصطلحين ـ دون أن نفكــر فى مدلولها سوى الفهم السطحى الساذج· او اننـا نستخدمها مــن منطلق النظرة اللغوية وبالتالى نجرد التعريب كمــا قلت من محتواه الصحيح ونحصره فى زاوية ضيقة بحيث لا يعبر عن قيم معينــة أو تقاليد راسخة أو جذورا عميقــة فى تاريخنا ؟ !

قد يقال هذه امــور شكلية ، ولكن الشكليات احيانا قد تحدث البلبلة فى الاذهان والنفوس لان تحديد الاشياء يعطيها مدلولها الحقيقى· فالغموض يحدث الفوضى ويترك المجال للاجتهادات الخاصة والتفسيرات المختلفــة ، خاصــة فى القضايا الجوهرية ذلك أن تناقض المفاهيم ينشا من تناقض التعبير وتضارب المصطلحات فى شتى المجالات · فوضوح الــراى من وضوح الفكــرة ووضوح التعبيــر ·

فمشكلة الانسان مشكلــة التعبير باستمراره فاللغة من الانسان بمعنى أو آخر· واعتقد ، أننى حين أقول : قل لى باية لغة تتكلم أقل لك من أنت ؟ اعتقد أن هذه المقولة صحيحة ، فاللغة بهذا المعنى التفكير والتعبير معا· لان لكل لغــة خصائصها

ومميزاتها التى تجسم بها تفكير أهلها والناطقين بها ، لهذا المعنى تعتبر اللغة مقوما أساسيا لشعب من الشعوب بل حتى التى تعطيه طابعا خاصا يميزه عن غيره ·

وفى تصورى ، فان ما عرضت له من آراء خاصة بالتعريب وبالرغم مما أحسه من فجوة عميقة ما زالت تفصلنا عن التعريب الحقيقى ، فان الامل يبقى دائما فى الجيل القادم الذى عاش ظروفا تاريخية لم يتلوث فيها بأفكار قديمة ورواسب استعمارية ولم يخضع لمركبات نفسية خاصة ، فهذا الجيل هو الذى يمكن أن يحقق التعريب اللغوى والفكرى اذا خططنا له تخطيطا سليما وهيانا له المناخ الملائم· اما اذا تركنا الامر للزمن وحده فانه لن يحل المشكلة فلا بد من رقابة يقظة مستمرة ، ولا بد من تفكير فى سبل جديدة لتحقيق المزيد من النجاح·

واذا كنا ننشىء مجالس شعبية للرقابة والتوجيه والتسيير ومصالح مختلفة تسهر على تحقيق أهداف الثورة ، فلماذا لا ننشىء مجلسا يتابع ما انجز من تعريب ، ويساعد على بلوغ الغايات والاهداف ويعمل على استمرار التعريب الكامل الشامل· لقد فعل هذا أناس لم تتعرض لغتهم لمثل ما تعرضت له لغتنا من حصار وضغط من قبل الاستعمار الفرنسي· وعانت الكثير من اعدائها وخصومها وربما حتى من بعض أنصارها الذين القوا المسؤولية على غيرهم لسبب أو لآخر· وهم مسؤولون عن التمهيد للثورة الثقافية التى سيكون التعريب من بين أهدافها وهى آتية لا ريب فى ذلك سواء طال الزمان أو قصر· لانها ستغير من مفاهيم كثيرة وستصلح اخطاء عديدة تحدد مقاييس جديدة للثقافة والفكر والتقدم·

الجزائر 1973



من اللغة

تبدأ ثورة التجديد

عثمان شبوب

لا يمكن لثورة شعبية ان تنجح وتحقق اهدافها الا اذا كانت اللغة الوطنية فيها تحتل مكانتها الطبيعية. كما ان المضمون الحقيقى للثورة هو تحقيق مقومات الشخصية الوطنية وفى طليعتها اللغة. لان اللغة هى رمز القومية الرئيسى ، ويستحيل على اى شعب ما ان يغير مصيره الى الافضل بواسطة لغة اجنبية عنه. والشعب الذى يفقد لغته يفقد حريته واستقلاله. وهذه الفقرة التى ساوردها هنا للاميرال قيدون الوالى الفرنسى على الجزائر اثناء الاحتلال تكفى للدلالة على دور اللغة فى الحفاظ على الامة. يقول هذا الوالى فى خطاب توجه به الى الآباء البيض سنة ١٨٧١ :

« انكم اذا سعيتم الى استمالة الاهالى بواسطة التعليم وبواسطة ما اسديتم اليهم من احسـان قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة للبلاد الفرنسية· فليس فى وسع فرنسا ان تنجب من الابناء مـا يكفى كى تعمر بهم الجزائر· وصار من الـلازم ان يستعاض عنهـم بفرنسة مليونين من البرابرة الخاضعين لسلطاننا· واصـلوا عملكم بحنكة ودربة وحيطة ، ولكم منى التاييد ، وفى امكانكم ان تعتمدوا على كل الاعتماد· (مجلة العالمين الصادرة فى باريس اول افريل ١٩٢٥) ·

وكتب الكادرينال لافيجرى ايضا مانصـه : « اذا كسبنا ثقـة الشعـوب بالاحسان وتعليم الصبيان (الفرنسية طبعا) فلا بد ان ياتى يـوم ينفصم فيه ما يربط بيننا من عرى بكيفية تلقائية ، فلا دنى هـزة هى تسقط ، كالثمرة الناضجة ، ونجنى نحن قطوفها » ·

فاللغة الوطنية ليست فقط وسيلة للحفاظ على الشخصية وضمان تماسكها وانما هى الى ذلـك اساس كل نهضة حقيقية شاملة· وكل الحركات الثورية فى العالم كانت قضية اللغة بالنسبة اليها هدفا استراتيجيا ثابتا· وليست قضـية شكلية كما يقول بعض قصيرى النظر عندنا· فالفرنسيون مثلا ، لم يكد يمضى على ثورتهم اربعة اعـوام حتى اجتمع رجال الفكر منهم للنظر فى قضيـة اللغة على اى نحو يتصورونها ، وفى اى اتجاه يوجهونها ، ولا عادة بنائها على خطـة جديدة تتفق وروح ثورتهم· وكونوا لهذا الغرض سنـة ١٧٩٥ معهدا جديدا اسموه : « المعهد القـومى للعلوم » ومن بين اقسام هذا المعهد الاساسية ذلك القسم الذى يبحث فى تحليل الاحساسات والافكار وعلاقة اللغة بـه ، باعتبارها الوسيلة الاساسية لنشاة المعرفة الانسانية وتطويرها· وضـم هذا القسم باحثين من جميع الاختصاصات ، ومـن جميع الاتجاهات الفكرية والثقافية لا فرق فى ذلك بين الملحد والمؤمن ، واليسارى واليمينى ، لانهم جميعا يعتبرون أن البحث فى اللغة لا ينبغى ان يتاثر بالاختلاف العقائدى والاديولوجى ·

وأورد نموذجا آخر من الفيتنام آمل ان يتدبره اولئك الذين يتصورون اللغـة مسالة شكلية ، ويرمون الدعـوة الى حمايتها بالتعصـب والشوفينية· يقول الاستاذ تران هيوتيك الرئيس المساعد للجمعية العامة للطب فى الفيتنام : « ان اللغة القومية مقدسة ، ينبغى ان تكون هى لغـة التعليم العالى فى بلد يتمتع باستقلال حقيقى ، فى بلد ذى سيادة· حر وديمقراطى· هذه هى الحقيقة الواضحـة » ·

والواقع ان تجارب الشعوب ومختلف الثورات الحقيقية فى ميدان اللغة معروفة ولا تحتاج الى تكرار· وهى عند ذوى العقـول السليمة ببديهية عقلية واضحة· ولكننا فى الجزائر ما نزال مـع الاسف فى حاجة الى تكرار مثل هذه البديهيات ما دامت مصيبتنا فى هؤلاء الذين نسميهم ضحايا الاستلاب الثقافى قائمة ·

* * *

ونستعرض الآن بعض العينات من تفكير هؤلاء فيما يخص وضع اللغة ووظيفتها :

اللغـة اداة لا غـير :

يرى بعض هؤلاء ان اللغة لا تعدو ان تكـون اداة شكلية لنقل الافكار والنظريات· وينبغى الا نتمسك بقضايا شكلية ·

وبالرغم مما تكشف عنه هذه النظريه من فقدان لروح الاعتزاز بالشخصية وللشعور الوطنى • نقول : ان جل الباحثين فى قضايا اللغة وعلم الاجتماع والنفس يكادون يتفقون على ان الابداع الحقيقى لا يكون الا باللغة الوطنية • وان ما هو وطنى فى مضمونه لا يمكن التعبير عنه بعمق ، يبرز كل تفاصيله بلغة غير وطنية •

وان استعمال لغة اجنبية تنشا عنه نتيجتان : فكرية ، ولسانية • فالواقع الجزائرى الذى نريد وصفه مثلا باللغة الاجنبية يكون قد وقع ادراكه بنسق لسانى اجنبى عنه• وبهذا فان هذا النسق يكون غير قادر على الابلاغ بامانة •

يقول السيد مالك حداد الكاتب الجزائرى باللغة الفرنسية : « ان الكلمات وهى معد اتنا اليومية ليست فى مستوى افكارنا بله عواطفنا ، وليس هناك الا توافق تقريبى بين فكرتنا العربية والفاظنا الفرنسية » •

فاللغة ليست لمجرد التعبير عن افكار تكونت ، بل هى جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها • بل ان تكوين الافكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات•

انظر مثلا الى الانسان عندما يتناول الطبيعة من حوله بكل ما فيها ومن فيها تجد لالفاظ اللغة التى يستخدمها وطرائق تركيبها جذورا عميقة فى هذه الطريقة المستخدمة : فاختلاف لغة عن لغة فى التعبير عن الزمن مثلا ، ايضا ، ينشا عنه اختلاف فى اللفتة العقلية عند اصحاب اللغتين : فقد يكون موضوع الاهتمام عند فريق هو ان تجيء الافعال فى اللغة دالا على الضبط الزمنى بين حادث سبق ، وحادث لاحق• فى حين يكون الاهتمام عند الآخر هو مضمون الاحداث لا ترتيبها الزمنى •

* * *

ويقول آخرون : انه من الاحسن والافيد الاعتماد على اللغة الاجنبية فى دراسة العلوم والتقنيات • وحصر مجال اللغة الوطنية فى المواد النظرية • وهذا خطأ كبير • لانه كما قال الاستاذ عبد الله المازونى : « من الخطر الكبير من اية جهة كانت ان نوجد نهجا ثقافيا تكون فيه التقنية مقطوعة عن اللغة القومية• اذ تكون نتيجة هذا فى العاجل ان تنفر من العربية شبابا همه النجاعة ، ومهجته متجهة الى العلوم الصحيحة التى هى علوم الطبيعة• وان نوهمه ان اللغة الاجنبية وحدها القادرة الى التعبير عن العقول والتقنية وان لا مناص منها اذا أردنا ان نضع انفسنا ، وان نقتحم العالم العصرى » • كما ان القيم لا يمكن تكوينها الا من خلال واقع محدد : جغرافيا ولغويا فى آن واحد • وان الثقافة الوطنية انما تتشكل مما تقوم به الامة ـ اية امة ـ من تاليف ما اكتسبته من العلوم والفنون والآداب • وان اللغة الوطنية تمثل عنصر تلاحم لاغنى عنه • فلا بد من اقتحام اللغة الوطنية مجالات العلوم حتى نحس بعمق ، بانتمائنا الى العصر •

* * *

وهناك ايضا مسالة الازدواجية التى يدعو اليها البعض •

يقول الجاحظ عند التعرض للترجمة والنقل فى عصره : « ومتى وجدنا الترجمان قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليهما• لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتاخذ منها

وتعترض عليها • وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليها •••» •

ولابـــن خلدون رأى في الازدواجية اللغوية ويسميها : مخالطة العجمة » : « ملكـة ممتزجة من الملكة الاولى » ومفاده ان خطر الازدواجية كبير على اللسان الاصلى لانها تبعد المتعلم عنـه وكأنه يدعو الى التقيد بلغــة واحدة اصلية فى تعليم الاطفال حتى تقوم ملكتهم الاولى ، يقـول : « لان البعد عن اللسان الاصلى انما هو بمخالطة العجمة • فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عـن ذلك اللسان الاصلى أبعد • لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التى كانت للعرب • ومن الملكة الثانية التى للعجم • فعلى مقدار ما يسمعونه من العــجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى » •

ويقول عالم اللغة المعروف مارتينى : « لكل لغة نظامها الخاص بها فى مجال معطيات التجربة فتعلم لغة ثانية لا يعنى وضع علامات جديدة على أشياء معروفة بل يقتضي ان يقع تحليل آخر لما يهدف اليه الابـلاغ اللغوى » فبمجرد ما يتحول المرء من لغة الى أخرى يفقد جزءا كبيرا من روح اللغة الاولى •

وفى هذا المعنى يقول ايضــا : فيما يخص الدراسة النظامية وهى يجب ان تبتدئ ـ فيما نعتقد ـ حوالى السادسة من العمر وان تستمر الى الخامسة عشرة ، نلاحظ فى البداية ـ حتى حوالى الثانية عشر ـ ان الازدواجيين متاخرون ذهنيا من وحيدى اللسان ؟ ••• وفيما بعد نشاهد الاذكياء من التلامذة الازدواجيين يتقدمون على اذكياء التلامذة الوحيدى اللغــة •

على انه يمكن ان نضيف اعتبارات اخرى ذات قيمة منها ان الازدواجية قد تكون صدمــة تظهر آثارها مثلا بنوع من التمتمة لدى الازدواجيين كما ان الطفل اذا ما مارس لغة ذات اعتزاز قـد ينفر عن اللغة الثانية ، مما يؤدى الى شيء مـن عدم الاستقرار يعبر عنـــه بالمركب • وتوضح الاحصائيات ببلاد الغال ما يتبع الازدواجية مـن الصعوبة لدى الطفل غير الموهوب ، ولا غرو ان هناك حملا اضافيا لا يمكن الطفل أن يتحمله ••» •

* * *

لا اود ان يفهم من هذا كله اننا ضد اللغـات الاجنبية ، او اننا نريد غــلق الابواب والنوافذ عن نسيم الثقافة العالمية• فهذا ما لا يقول بـــه عاقل• لكن الازدواجية المضرة والخطيرة فى رأيى انما تتمثل فى ذلك الانفصام بين الفكر والحيــاة الوطنية فى جميع ابعادها• فالفكر هـو حصيلة التفاعل الحي بين عناصــر الثقافة والشخصية وظروف البيئة المحلية وحركة التطور الاجتماعى والنفسى ولن يتم ذلك الا باللغة الوطنية• هذا من الناحية النظرية• ومن الناحية العملية فالازدواجية يعنى ان اللغة الوطنية تدخــل فى مسابقة غير متكافئة• وكلنا نعلـــم ان العربية اذ تدخل هذا السباق وهى ما تزال مثقلة بأوزار عهود الانحطاط والجمود •• وفى وسط يعيش حالــة استلاب ثقافى وحضارى ستخسر السباق •

ورأيي الخاص ، ان ظاهرة الازدواجية ينبغى ان ننظر اليها على انها مرحلة من مراحل التطور ، وانها تدخل فى حركة جدلية واسعة الابعاد • فاذا كانت المرحلة الاولى هى مرحلة الانعزال ، والمرحلة الثانية هى مرحلة التفتح على الفكر العالمى مع

تجاهل الثقافة الوطنية او التنكر لها· فان المرحلة الثالثة ـ ونامل ان نكون فى بدايتها ـ هى الرجوع الى الثقافة الوطنية بروح ومفاهيم جديدة ·

* * *

واما القضية الاخرى التى تثار من خلال هذا الحوار حـــول التعريب ، فهى قضـــية العامية والفصحى· وهذه القضية قديمة ووقع حولها نقاش واسع فى المشـــرق العربى خاصة· وكان انيس فريحه مثلا يقول : « ان العربية ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة الواقعية كمـا تستطيعه العامية· والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية· واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا ، قاسيا ، خلوا من العنصر الانسانى » · وما يزال الحوار حول هذه المسالة حتى الآن ·

والواقع ان ظاهرة العامية ليست ظاهرة تنفرد بها اللغة العربية ، فقد عرفتها كل اللغات تقريبا · ووقائع التجارب الآن على مستوى العالم العربى تؤكد ان نشر التعليم ، وتعميم الثقافة بالوسائل التقنية الحديثة ، ومبادرة بعض البلدان ، ومن بينها الجـــزائر ، الى تفصيح كثير من المفردات الدارجة ونشاطات المعاهد اللغوية والمجامع فى البلاد العربية · كل ذلك من شانه ان يوفر الجو الطبيعى لســـيادة الفصحى لتكون لغـــة الحياة اليومية والثقافـــة ·

* * *

اما المسالة الاخرى التى تثار ايضا فهى ادعاء البعض ان التعريب يؤدى الى انخفاض المستوى· ومع اقرارى بهذا الضعف· فهو ليس وقفا عـــلى الاقسام المعربة ، فهو ضعف عام متجانس نجـده ايضا فى الاقسام غير العربية· وكان ينبغى ـ لو توفر الشعور الوطنى والارادة الثورية ـ ان يدرس هذا الضعف بهدف تجاوزه لا ان يكون تبريرا لتخريب التعريب ·

واما القول بان المعربين عاجزون· فيمكن الرد عليه باننا منـــذ الاستقلال وكل امورنا الادارية والثقافية والعمرانية وغيرها بايدى هؤلاء· فاي اصلاح ادخلوه على حياتنا· انهم كما قال الاستاذ عبد الله شريط فى مقال له عن هذا الموضوع · مكبلون بالقيود الفرنسية· واقفلوا جميع النوافذ المطلة على النماذج الانسانية الاخرى · واقـــول ايضا ان هذا العجز قاسم مشترك بين الجميع · واذا كان هناك فـــرق فهو فى درجـــة الوطنية والاعتزاز الوطنى فقط ·

* * *

اما المســـالة الاخرى فهو ادعاء البعض ممن ينتسبون زورا الى التقدمية· ان التعريب شعار ترفعه الرجعية فى هذا الظـــرف بالذات لتغطية قضية الثـــورة الزراعية· وان التـــعريب ردة شوفينية ·

اقول لهؤلاء ان التعريب ليس هذا او ذاك · انه فى احدى وجوهه مشكل صـــراع طبقى بين الاغلبية الساحقة ، وبين الاقلية المتعلمة باللغـــة الاجنبية· وان تحليل الاصول الاجتماعية لكـــلا العنصرين يوضح من يقف فعلا ضـــد جميـــع الاختيارات الاساسية للثورة ومن بينها الثـــورة الزراعية· ولا شـــك بناء على هذا التحليل ان المعربين ومعهـم الجماهير الشعبية العريضة لا يوجد اى تناقض بينهم وبين الثورة الزراعية · هذا مـــن الناحية النظرية المنطقية· ومـــن الناحية التاريخية ، وبتتبع ســـير حركة التحرر الوطنى الجزائرى يتبين لنا ان الريف كان الوعـاء الذى

حمي الثقافة العربية الاسلامية من التلاشي٠ وهذا التلاحم بين الفلاحين وكل الفئات الكادحة والثقافة الوطنية هو الذى يفسر العمق الخلفى للثورة الجزائرية الذى يتالف من كلمتين : الارض واللغة٠

والريف بعد ان انتزعت منه الارض تحول الى قلعة حصينة قاومت عملية المسخ الثقافى ٠ فهناك اذن امتزاج عضوى بين النضال من اجل استعادة الارض ومقومات الامة وفى طليعتها اللغة٠ وهذا الامتزاج هو الاساس الايدولوجى للثورة الجزائرية ٠

ولنا ان نتساءل : من هم المتحمسون للتعريب والثقافة الوطنية ككل ، ومنهم المعارضون لـه ؟ ان الرغبة فى تعلم اللغة الوطنية موجودة بصورة واضحة بين الجماهير الشعبية الواسعة٠ اما المعارضون فهم الاقلية التى تسيطر وتملك جميع ادوات السلطة الحقيقية ٠

وادعو هؤلاء الى تامل التحول الاجتماعى فى بلادنا منذ الاستقلال حتى الآن ٠ فسيجدون ان هذه الطبقية الثقافية تتحول شيئا فشيئا الى طبقة لها امتيازات اقتصادية واجتماعية متناقضة مع مصالح الجماهير الشعبية ٠

والواقع ان الصراع حول وضع اللغة والثقافة الوطنية ومستقبلها لا يضع فى مقدمة المواجهة هذه الطبقة البيروقراطية والجماهير الشعبية فحسب ، ولكنه يضع ايضا قمة الدولة باعتبارها المعبرة عن اهداف الثورة ٠

فاحتكار هذه الاقلية لجميع السلط الادارية وغيرها يقف وراء التعثر فى حركة التعريب الى درجة ان بعض الاباء اصبحوا يحتجون عندما يعين ابناؤهم فى الاقسام المعربة٠ ويقولون كانت الفرنسية فى العهد الاستعمارى لغة الخبز والحياة واليوم هى كذلك ٠ فلماذا نحرم ابنائنا ؟

صحيح انه يوجد من بين المعربين من له اتجاه او موقف ايدولوجى مخالف ٠ ولكنه يوجد ايضا منهم متحمسون لاختيارات الثورة ، ونفس الظاهرة تلاحظ بالنسبة لغير المعربين ٠

واما مسالة اثارة موضوع التعريب فى هذا الظرف ، ظرف معركة الثورة الزراعية واعتباره تشويشا لسير هذه المعركة٠ فتاويل ساذج٠ ولو درسوا بالعمق تاريخ انطلاق الحركات الاشتراكية فى العالم لتوصلوا الى نتائج مهمة تساعدهم على انضاج ثقافتهم ٠ ان اول قضية بادر لينين بعد انتصار الثورة هو اصلاح اللغة الروسية لا استبدالها بلغة اخرى ٠ وانه فى سنوات المجاعة كان لينين يتحدث ويعبىء الجهود للقضاء على الامية ولم ير اى تعارض بين تعليم اللغة الروسية لافراد شعبه وبين استمرار تطبيق الاشتراكية ٠ ويقول لينين : « شعب يعتمد فى حياته الفكرية والثقافية على لغة اجنبية لن يتمكن ابدا من التحرر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى٠ لان اللغة الاجنبية ستبقى وقفا على طائفة ذات امتيازات ثقافية٠ ومن ثم تؤول الى امتيازات اقتصادية واجتماعية وسياسية ٠

وكان هدف الحزب الشيوعى الفيتنامى منذ الايام الاولى لتاسيسه اعادة الاعتبار للغة الوطنية والعمل من اجل سيادتها ٠ يقول السيد نغويين فان هوين : كان الحزب منذ تاسيسه الاول يصدر قراراته وتوجيهاته ومنشوراته ونداءاته باللغة الفيتنامية ٠ وكانت القضايا العقائدية والسياسية تقدم بلغة الشعب٠ صدرت كتب عن الماركسية باللينينية وحررت فى مرحلة الكفاح السرى

باللغة الفيتنامية وانتشرت في جميع انحاء الوطن واثرت تاثيرا عميقا على مختلف طبقات الشعب» ·

فهل نتهم لينين والشيوعيين الفيتناميين عندما يـؤكدون على دور اللغـة الوطنية بالشوفينية والرجعية ؟ ان الخطر الحقيقي ليس هو التعريب بالنسبة للثورة الاشتراكية · وانما الخطـر في هذه الظاهرة : وهي اننا في ظرف عشر سنوات انتشرت اللغة الفرنسية على نطاق لم يصل اليه الاحتلال الفرنسي طيلة حكمه الطويل ، وان عدد الكتب الفرنسية ـ ونقتطف هنا بعض ما جاء في تصـريح للوزير الفرنسي السابق روني بوردون عارض به ريموند كرطي في ندوة تليفيزيونية حيث ذكر ان عدد الكتب المستوردة من فرنسا بالنسبة للجزائر ، هو خمسة اضعافها سنة ١٩٦١ · وما نتج وينتج عن هذا من نزوع محموم نحو التقليد واعتبـار النموذج الغـربي الراسمالي اعلى المستويات الثقافية والحضارية ·

ونلاحظ بازاء هذا ذلك التقتير المقصود فيمـا يتعلق باستيراد الكتاب العربي وما ينشأ عن ذلك من مضاعفات على حركة التعريب ·

وهنا نتساءل اليس انتشار ما يسمونه انفسهم ، بالثقافة الغربية الراسمالية عن هذا الطريق وغيره هو الذي يهدد نجاح الاشتراكية ؟ ! ومع ذلك لم نشاهد هؤلاء يتخذون اي موقف تجاه هذا الخطر·

* * *

ينبغي ان تقف هذه المزايدة والثرثرات العقيمة البعيدة عن الواقع الموضوعي للجماهير الشعبية ، هذه الشعارات التي تخـدع بردائها الثوري الظاهري ، وتخفي في طياتها خواء الفكر والبعد عن الواقع· ووضع المسالة على وضعها الصحيح وهو ان التعريب يعني : ثقافة وطنية بلغة وطنية وعلى اسس شعبية ثورية ·

واملنا اخيرا ان نعمل جميعا على تطوير اللغة الوطنية بحيث تحقق شرطين : ان تحافظ عـلى عبقريتها اولا · وان تكون اداة للتوصيل والابلاغ لا مجرد وسيلة للترنم بها · وبهذا ندخل مـع الانسانية عصـر التفكير العلمي الذي يواجه المشكـلات ·

عثمـان شبـوب

الجزائر 1973